نمت نموًّا مطردًا، ورثها الحاج مسعود عن أبيه الحاج عمران واسعة فسيحة الأرجاء، لا تكاد ترتفع في السماء إلا قليلًا، وورث من حولها أرضًا منبسطة لا يكاد الطرف يبلغ مداها، فلمَّا رزق ابنته الأولى فاطمة خطر له أن يبني عن يمين داره الموروثة دارًا جديدة صغيرة لهذه الصبية التي لم تتم العام الأول من حياتها، وقال لامرأته وهو يضحك: إن مدَّ الله لهذه الصبية في العمر فستتزوج، وما أحب أن تنتقل إلى زوجها فتصبح غريبة عنده، وإنما أحب أن ينتقل الزوج إليها، وأن تستقبله في هذه الدار التي تملكها، فلا تحس أنها تبع له أو ثقل على أسرته. ثم رزق ابنته الثانية حفيظة، فاتخذ لها دارًا إلى جانب دار فاطمة، وقال لامرأته مثل ذلك القول، وقال للناس مثل ذلك القول، ثم رُزق بعد ذلك خديجة ومُنى، فاتخذ لهما دارَين عن شمال داره، كما اتَّخذ لأختيهما دارين عن يمينها.

ونظر ذات يوم فإذا أَبْنِيَتُهُ قد كادت تستغرق ما كان يملك من الأرض في طرف المدينة، وإذا هي توشك أن تستقل عن المدينة استقلالًا، وإذا هي بناء ضخم ينبسط أمامه فناء عريض قد قامت فيه بعض الأشجار متفرقة، وامتد له عن يمين وشمال جناحان طويلان على شيء من ضخامة، فلما رأى هذا كله أعجبه واتَّخذَ من حوله سُورًا، وإذا داره أشبه شيء بالحصن ذي الأسوار المرتفعة في السماء تُفتح أبوابها مع الصبح ليخرج منها الناس والإبل والماشية، ثم تغلق إذا تقدم الليل على من لجأ إليها وما ألجئ إليها من الناس والماشية فلا غرابة في أن يفكر علي أبو خالد في أن يصهر إلى الحاج مسعود كما قدَّر الشيخ الكبير، فقد كان شرف هذا الرجل ومكانه من الشيخ وتجارته الواسعة وثروته العريضة ودوره هذه المنبثة من وراء السور كأنها الحصن، وهذا الخير الكثير الذي يغدو منها مع مطلع الفجر ويروح إليها عند مغرب الشمس.

كان هذا كله مُغريًا لعليٍّ بالإصهار إلى الحاج مسعود، فكيف وقد سمع علي أنَّ صُغرى بناته جميلة رائعة الجمال لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد؛ وليس من البعيد أن يكون علي قد وجد في ضميره الخفي على شيخه بعض الموجدة حين صرف عنه مسعودًا وحذَّره من الإصهار إليه، ولكن هذا ظنٌّ نستغفر الله منه، فإن بعض الظن إثم، إنما الشيء الذي لا شك فيه هو أن شيئًا من فتور قد سرى في اجتهاد عليٍّ كما تسري النار الخفية الضئيلة في المقادير الضخمة الهائلة من الهشيم، وظن آخر نستغفر الله منه؛ لأن بعض الظن إثم، وهو أن شيئًا من الفتور الخفيِّ جدًّا، قد أخذ يسري في حب علي لابنه خالد وفي عطفه عليه، ولو أمكن أن يحسد الآباء أبناءهم لجاز أن تكون شرارة